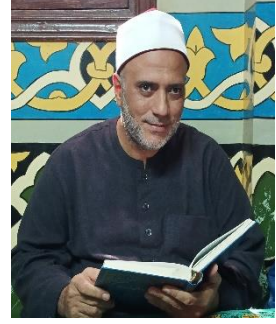


بحث في : مثل المؤمن كالنخلة – الشيخ رضا

بم تميز النخل دون غيره من الشجر؟ وما الأسرار البلاغية النبوية في تشبيه المؤمن به؟ وما الواجب علينا؟



جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي» «فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال: «هي النخلة.»»

شجر البوادي : هو مصطلح يطلق على أشجار الصحراء، أو أشجار البيئة البدوية، وتحديدًا الأشجار التي تنمو في المناطق القاحلة وشبه القاحلة. تتميز هذه الأشجار بقدرتها على التكيف مع الظروف البيئية الصعبة، مثل قلة المياه وارتفاع درجات الحرارة

تفرد النخلة :

لم تحظ شجرة في الذكر بما حظيت به النخلة، فهي مرتبطة في الذهنية العربية قبل الإسلام وبعده، وهي حاضرة في القرآن والسنة، فذكرت في القرآن أكثر من إحدى وعشرين مرة، وأما الأحاديث فقد وردت في أكثر من ثلاثمائة مرة، وهذا احتفاء ظاهر بهذه الشجرة، لأنها ترمز للعطاء والخير والبركة، ومن صور ورودها في السنة ورودها مضرب مثل للمؤمن وبركته، واتصال منافعه.

روى البخاري ومسلم وأحمد في مسنده، "فبينما هم جلوس عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أوتي النبي -صلى الله عليه وسلم- بجُمَّارِ نخلٍ- والجُمَّار: هو قلب النخلة- ، فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يأكل منه وقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "مثل المؤمن كمثل شجرة لا يسقط ورقها ولا يتحات صيفًا ولا شتاءً."

لا تأكل طيب ولا تخرج الا طيب :

وصفت النخلة في الآية بأنها شجرة طيبة ، وهذا أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح وطيب الثمر وطيب المنفعة ؛ والمؤمن كذلك أجل صفاته الطيب

بحث في : مثل المؤمن كالنخلة – الشيخ رضا

في شؤونه كلها وأحواله جميعها ، في ظاهره وباطنه وفي سره وعلمه ، ولهذا عندما يدخل المؤمنون الجنة تتلقاهم خزنتها قائلة لهم : {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر:??] ، وقال تعالى : {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل:32] . وقد روى ابن حبان عن أبي رزين مرفوعاً: «مثل المؤمن مثل النخلة: لا تأكل إلا طيباً، ولا تضع إلا طيباً».

والنخلة لا تنبت في كل أرض ، بل لا تنبت إلا في أراضٍ معيّنة طيبة التربة ، فهي في بعض الأماكن لا تنبت مطلقاً ، وفي بعضها تنبت ولكن لا تثمر ، وفي بعضها تثمر ولكن يكون الثمر ضعيفاً ، فليست كل أرض تناسب النخلة . وهكذا الشأن في الإيمان ؛ فهو لا يثبت في كل قلب ، وإنما يثبت في قلب من كتب الله له الهداية وشرح صدره للإيمان ، والقلوب أوعية متفاوتة وبعضها أوعى من بعض.

حلاوة ثمرها :

وثمر النخلة من أنفع ثمار العالم وله حلاوة لا تدانيها حلاوة ، وكذلك الإيمان له حلاوة ولذة لا يذوقها إلا صحيح الإيمان . عن أنس رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ)) [رواه البخاري (16) ومسلم (43)] .

تفاوت انتاجه وتدرج حلاوته :

إن النخل بينه تفاوت عظيم في شكله ونوعه وثمره ، فليست النخيل في مستوى واحد في الحسن والجودة بل بينه من التفاوت والتمايز الشيء الكثير ؛ وهكذا الشأن بين المؤمنين ، فالمؤمنون متفاوتون في الإيمان ، وليسو في الإيمان على درجة واحدة ، بل بينهم من التفاوت والتفاضل الشيء الكثير ، كما قال الله تعالى : {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ قَالَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر:32] .

كثرة خيرها وبركاتها :

عند البخاري عن بن عمر قال بينا نحن عند النبي -صلى الله عليه وسلم- إذ أتى بجُمَار فقال: «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم.»

بحث في : مثل المؤمن كالنخلة – الشيخ رضا

فكثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمارها ووجوده على الدوام فإنه من حين يطلع ثمارها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس ويتخذ منه منافع كثيرة ومن خشبها وورقها وأغصانها فتستعمل جذوعا وخطبا وعصيا ومخاصر وحصرا وحبالا وأواني وغير ذلك ثم آخر شيء منها نواها فينتفع به علفا للابل ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها فهي منافع كلها وخير وجمال كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه فيواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره وصدقة والصلة وسائر الطاعات وغير ذلك وهو دائم كما تدوم أوراق النخلة فيها فهذا هو الصحيح في وجه التشبيه.

فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعا، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها حتى النوى في علف الدواب والليف في الحبال وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته.

ومن الأوجه: أن النخلة تؤكل بلحا ورطبًا، وتمرًا وحشفاً، يابسًا وبسرى، تؤكل في جميع الأوقات وتدخر في جميع الصفات، وهكذا المؤمن ، فإن منافعه أكثر من أن تحصى، إذا أردته في مجلس ذكر أعانك على الذكر، وإذا أردته في الجهاد وهب نفسه للجهاد، وإذا أردته أن يشارك في مسألة أعطاك ما يمكن أن يشاركك به، وإن كان عنده مال واحتجت له، شارك بماله، وإن كان عنده وقت وبقي له وقت شارك بوقته، يزورك إذا مرضت، ويشمتك إذا عطست، ويشيعك إذا مت، فهو دائماً معك، فمنافعه أعظم من منافع النخلة، لكن وجه الشبه كثرة المنافع بين الجانبين.

كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها :

وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله من خير الناس ؟ قال : ((مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ)) [رواه الترمذي (2329) وصححه الألباني رحمه الله في (صحيح سنن الترمذي) (1898)].

قوتها وثباتها :

قال الله تعالى { أَصْلُهَا ثَابِتٌ } ، وهكذا الشأن في الإيمان إذا رسخ في القلب ؛ فإنه يصير في أشد ما يكون من الثبات لا يزعه شيء بل يكون ثابتاً كثبوت الجبال

بحث في : مثل المؤمن كالنخلة – الشيخ رضا

الرواسي ، سئل الأوزاعي رحمه الله عن الإيمان أيزيد ؟ قال : " نعم حتى يكون مثل الجبال " قيل : أينقص ؟ قال : " نعم حتى لا يبقى منه شيء. "

والنخلة عصية على كل التغيرات المناخية، ثابتة أمام الرياح العاتية، وهي مع كل هذا ثمرة نافعة، والمؤمن مهما تراكت عليه الفتن والشبهات، وانفتحت عليه الشهوات والحضارات، مهما تخلص الناس عن مبادئهم، وقيمهم، ودينهم، ومهما أشد البلاء وغربة الدين وقلة المعين، وحُب الناس ونريد مثل ما يريد الناس، والعالم الفلاني أفتى بكذا وهذا جائز، والفتن تقصف من حواليه، تحاول زعزعته وتخليته، فالمؤمن ثابت قائم متمسك بدينه، وقيمته وأخلاقه.

قال القرطبي: وقع التشبيه بين النخلة والمؤمن من جهة أن أصل دين المسلم ثابت وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب وأنه لا يزال مستورا بدينه وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حيا وميتا انتهى وقال غيره: والمراد بكون فرع المؤمن في السماء رفع عمله وقبوله.

فرعها في السماء :

وشبه -صلى الله عليه وسلم- النخلة بالمسلم، كما شبهها الله في كتابه، وضرب بها المثل للناس، كما في المستدرک عن أنس قال: أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقناع فيه رطب، فقال: « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » قال: « هي النخلة ».

كما أن النخلة لها فرع ممتد في السماء وهكذا الشأن في الإيمان له فروع زكية ألا وهي الطاعات بأنواعها والعبادات بأصنافها وفعل كل ما يقرب إلى الله من سديد الأقوال وصالح الأعمال.

وربما هي إشارة الى صعود العمل المقبول ، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

ارتفاع القامة وعلو الهمة :

فالنخلة هامتها مثل هامة المسلم، أما ترى النخلة قوية مرتفعة، ولذلك إذا هب الإعصار فإنه لا يأتي إلا على أعالي الشجر، فالمسلم همته عالية، دائماً يفكر في معالي الأمور، ويفكر دائماً في الجنة، وفيما يقربه إلى الله، وهمته مثل علو النخلة، ولذلك أنزل الله

بحث في : مثل المؤمن كالنخلة – الشيخ رضا

تعالى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق: ١٠] قال بعض الأعراب: صليت المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقرأ: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق: ١٠] فوالله ما علمت ولا أدري ما قرأ بعدها، ولأنني وقفت عندها، ولذلك يقول الزمخشري في التفسير: وإنها لآية عجيبة حقاً، انظر لاختيار الكلمات: النخل باسقات، لم يقل طويلات، جمع باسقة والباسقة الطويلة، قالوا: ومع طولها امتداد قامتها؛ لأن بعض الناس طويل لكنه منحني مكسور الظهر، فمن ارتفاع همة المسلم أنه مثل النخلة في ارتفاع الهمة، فلا يفكر إلا في معالي الأمور.

ولذلك يقال: سل الإنسان فيم يفكر؟ سوف تعلم أي همة يهتم بها، من اهتم بأمر المسلمين أو بإصلاح بيته فهمته من أعلى الهمم، ومن اهتم بغير ذلك فهمته توصله إلى ذلك، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: إن الله ينظر إلى همم الناس وإلى نياتهم ولا ينظر إلى صورهم سبحانه وتعالى ولا إلى هياكلهم ولا إلى أموالهم، فالحمة هي العظيمة؛ ولذلك يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: والله لقد رأيت أناساً في المعمورة، فتعجبت من سقط همهم، ويظنون أنهم بلغوا الثريا بالهمم، سمعت قول المتنبي في الهمم:

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تصاعد همتي

دوام الاخضرار فيها إشارة الى إخلاص المؤمن :

يقولون: إن النخلة دائماً لا يسقط لها ورقة في الشتاء، ولذلك المؤمن على كلمة واحدة، يقول الحسن البصري رحمه الله: [[تلقاه العام بعد العام وهو على كلمة واحدة، وعلى نية واحدة وعلى عمل واحد أما المنافق فيتلون]] أي: إذا رأى المصلحة معك فهو معك، وإذا رأى أنك لم تقدم له شيئاً فإنه ليس معك، إن أركبته في السيارة ذكرك وأحبك، يوم أن غديته أحبك لكنه حبّ وقتي للطوارئ، أما المؤمن فهو معك دائماً.

ولذلك يقولون: دوام اخضرار المؤمن في عمله الصالح، فهو على كلمة واحدة، هل هناك مؤمن في الشتاء يزيد إيمانه وفي الصيف ينقص، وزيادة الإيمان مطلوبة، لكن في الشتاء تلقاه بوجهه، وفي الصيف تلقاه بوجهه، فالمؤمن واحد في الليل والنهار، وكذلك النخلة لا تسقط ورقها في الشتاء، فهي دائمة الخضرة.

اتصال نسل المؤمن :

بحث في : مثل المؤمن كالنخلة – الشيخ رضا

فيه الإشارة إلى اتصال نسل المؤمن، كاتصال بقاء النخلة؛ إذ أنها تحمل نواة ابنتها داخل ثمرها، وهكذا هي تكافح لأجل البقاء، وكذلك المؤمن في داخله مادة التناسل، ونطفة البنوة التي تعقبه بحكمة الله التي قضت ببقاء النوع الإنساني إلى آخر أيام الدنيا.

قال الوزير ابن هبيرة: في هذا الحديث من الفقه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضرب هذا مثلاً يستنبط منه أنه يرغب الإنسان في ابتغاء الولد؛ فإنها معرضة لأن تثمر ثمرة مشتملة على ما هو أصل لمثلها؛ فلو قدر مقدر أنه قد غرس نوى ثمرة هذه النخلة غارس من وقت حملها إلى آخر بقائها؛ ثم غرس ما تثمره كل نخلة تنبت من ذلك النوى، وامتد ذلك إلى يوم القيامة، فإنه يعلم به قدر الثواب في ابتغاء الولد الذي يولد له ثم يولد لولده وولد ولده، هكذا ما تناسلوا حتى تكون سنة الأمة العظيمة، فهذا معنى قوله: « شجرة مثلها مثل الرجل المسلم ».

أوجه ضعيفه :

قال ابن حجر: ومن زعم أن موقع التشبيه من جهة كون النخلة إذا قطع رأسها ماتت، أو أنها لا تحمل حتى تلقح، أو أنها إذا غرقت ماتت، أو أن لطلعها رائحة كمني الآدمي، أو أنها تعشق فكلها أوجه ضعيفة، إذ كل ذلك مشترك في الآدميين لا يختص بالمسلم، وأضعف منه زعم أنها خلقت من فضلة طينة آدم، فإنه حديث لم يثبت، وفيه رمز إلى أن تشبيه الشيء بالشيء لا يلزم منه كونه نظيره من كل وجه فإن المؤمن لا يماثله شيء من الجماد ولا يعادله.

الواجب علينا :

طرح الأسئلة على المتعلمين :

أخذت من هذا الحديث وقد أسلفت الكلام عنها، ولكن ليعلم أن من أحسن الأسئلة ما دار حول الدرس المشروح، أو ما دار حول القضية المطروحة، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لما طرح عنده الجمار، سأل الصحابة في ذلك وقد تعزب على المعلم أن يمهل الناس، أو يمهل الطلبة، له أن يعطيهم يوماً فيتفكرون ويتدبرون في ذلك.

توقير الكبير :

بحث في : مثل المؤمن كالنخلة – الشيخ رضا

ففي الحديث ما يدل على الأدب مع الأكابر والإخوان والأصحاب، وحياء الإنسان بحضرتهم، ما لم يؤدَّ إلى تفويت مصلحة ، «فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال : «هي النخلة.»»

وفيه: ما يدلُّ على فطنة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ضرب الأمثال لتقريب المعاني :

فعلى الداعية أن يضرب الأمثال للناس، فإن الله عز وجل ضرب القصص والأمثال للناس وطرحتها ليتفكروا ويتدبروا: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} [إبراهيم: ٢٤] (مثلاً ما بعوضة) وضرب الله سبحانه وتعالى بالذباب مثلاً، وضرب الله سبحانه وتعالى بالعنكبوت وبالبعوضة مثلاً، فللمسلم أو الداعية أو العالم أن يضرب الأمثال للناس حتى يستفيدوا من ذلك.

التعالي على الأحقاد :

وصدق من قال :

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً *** يُرمى بصخرٍ فيلقي بأطيب الثمرِ

ورأيت في ترجمة عيسى عليه السلام في بعض الكتب أنه كلمه رجل فأبذى عليه ذاك الرجل -سبه وشتمه- فقال: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: ٥٥].

وخذ من طيب النخل طيب العشرة ..

ومن حلاوة ثمرها عذوبة الكلمة ..

ومن كثرة منافعها خيرية (خير الناس أنفعهم للناس) .

وخذ ثباتك من ثباتها ، وشموذك وعزة دينك من كونها باسقات .

ومن دوام خضرتها أنها على لون واحد وهو الإخلاص لله ، لا تلون المنافقين ، وصدق من قال : اخلص لوجه واحد يكفيك وجوه كثيره ..

تم البحث بحمد الله (شهر 8 عام 2025) أخوكم الشيخ / رضا

01024221073